

الإرادة الإلهية؛ تعريفها وأقسامها ومعانيها في الآيات الروايات

ناهد الشماسي¹

الخلاصة:

إن هذه الدراسة والتي تحمل عنوان (الإرادة الإلهية، تعريفها وأقسامها ومعانيها في الآيات والروايات)، هي من أهم الدراسات وأكثرها تعقيداً في الدراسات الكلامية والفلسفية. وتهدف هذه الدراسة إلى التعرف على الإرادة الإلهية وأقسامها ومعانيها من خلال الآيات القرآنية ومن خلال روايات أهل البيت (ع)، كل هذا من أجل الوصول إلى مفهوم دقيق يُشير إلى حقيقة الإرادة الإلهية.

ووجدت أن الإرادة الإلهية هي من صفات الكمال لله تعالى، والدالة على تحقق الاختيار وعدم المقهورية. واختلف علماء الإسلام في تعريف حقيقة تلك الإرادة الإلهية، في كونها صفة ذاتية أم صفة فعلية، ووجدت أن الإرادة الإلهية هي صفة ذات مقامين: ذاتية وفعلية. وتنقسم الإرادة الإلهية إلى إرادة تكوينية وأخرى تشريعية، وأن الإرادة التكوينية هي المتعلقة بالخلق والايجاد دون توسط شيء، بينما الإرادة التشريعية متعلقة بالأحكام والقوانين. وقد نظر الأئمة (ع) إلى الإرادة من عدة زواياها، أهمها: أن صفة الإرادة مختلفة عن صفتي العلم والقدرة الإلهيتين، وأنه لا توجد ظاهرة كونية وإلا تعلق بها الإرادة الإلهية. ووجدت أن الإرادة الإلهية لها أثر تربوي عميق على المؤمنين والصالحين، حيث تزيدهم قوة وأمل ورسوخ في مواجهة الظالمين، ووجدت أن ما ذهب إليه الحكيم السب زواري في تعريف الإرادة الإلهية هو أقرب وصف للإرادة الإلهية، وأنه يحتاج تأمل أكثر من العلماء.

الكلمات الرئيسية: الإرادة الإلهية، الصفات « التعريف، الأقسام، المعاني، الآيات الروايات

¹ دكتوراه في التفسير المقارن وطالبة مرحلة دكتوراه في علم الكلام الإسلامي وأستاذة تفسير وعلوم القرآن في جامعة آل البيت (ع) المجازية العالمية.

المقدمة:

تحدثت آيات قرآنية كثيرة وروايات عن إرادة الله سبحانه وتعالى، سواء إرادته في عالم الخلق والوجود، أو إرادته في تشريع القوانين والأحكام والتكاليف، وإرادته في مصير العباد (مكارم الشيرازي، ١٤٢٦ هـ. ق، ج ٤، ص ١٣١) ومسألة الإرادة الإلهية تُعد من المسائل المثيرة في علم الكلام، حيث طُرحت على بساط البحث من جوانب عديدة، ونشبت حولها نزاعات وخلافات، أمثال: هل الإرادة صفة ذاتية أم صفة فعلية؟، وهل الإرادة صفة قديمة أم حادثة؟، وهل هي واحدة أم متعددة؟، وغيرها من البحوث التي تناولها علماء الكلام، والفلاسفة، قديمًا وحديثًا. (المصباح اليزدي، ٢٠٠٨ م، ص ١٠٠)

ولذلك يمكن أن نعتبر مسألة الإرادة الإلهية من أعقد المسائل الكلامية والعقائدية والفلسفية.

أهداف البحث: ١ - التعرف على تعريف الإرادة الإلهية وأقسامها.

٢ - التعرف على معنى الإرادة الإلهية في الآيات والروايات.

أهمية البحث: محاولة الوصول إلى أقرب تعريف أو مفهوم يشير إلى حقيقة الإرادة الإلهية من خلال تتبع الآيات الشريفة والروايات وأقوال المتكلمين.

دراسات سابقة: لا تخلو الكتب الكلامية من بحوث حول تعريف الإرادة الإلهية، وأقسام الإرادة الإلهية، فمن الكتب الكلامية القديمة:

المنقذ من التقليد للشيخ سديد الدين الحمصي وهو من علماء أوائل القرن السابع، وتناول فيه بحث صفة الإرادة من خلال الرد على المعتزلة والأشاعرة ومن خلال إثباتها كصفة ثبوتية كصفة العلم ونفي النقائص عنها.

ومن الكتب الكلامية الحديثة التي تناولت مبحث الإرادة الإلهية هو:

كتاب الإرادة الإلهية التكوينية والتشريعية للشيخ جعفر السبحاني.

وهو من ٦٤ صفحة، وقد تناول فيه نظريات بعض العلماء حول تعريف الإرادة الإلهية مع مناقشتها، وكذلك حول أقسامها مستعينًا بالآيات القرآنية، والروايات.

نوع البحث: نقلي، وصفي.

السؤال الأصلي: ما هو تعريف الإرادة الإلهية وأقسامها، ومعانيها في الآيات والروايات؟

الأسئلة الفرعية: ١ - ما هو تعريف الإرادة الإلهية وما هي أقسامها؟

٢ - ما هو معنى الإرادة الإلهية في الآيات والروايات؟

الفرضية: أن الإرادة الإلهية هي صفة ثبوتية لها مقامين: مقام الذات ومقام الفعل، وأن الإرادة لها عدة معانٍ في الآيات والروايات.

الكلمات المفتاحية: الإرادة، الإرادة الإلهية، الآيات، الروايات.

المبحث الأول: الإرادة الإلهية:

١ - تعريف الإرادة لغة واصطلاحاً:

أ - تعريف الإرادة لغة: الإرادة لغة من مادة (رود)، وقد أخذت عدة معاني، منها:

١- الإرادة بمعنى المجيء والذهاب، يقول ابن فارس: «يدل على مجيء وذهاب في جهة واحدة، وقال بعضهم الإرادة أصلها الواو، وحجته أنك تقول راودته على كذا». (ابن فارس، ١٣٩٩ هـ، ج ٢، ص ٤٥٨)

٢- الإرادة هي السعي، يقول الراغب الأصفهاني: «من أراد إذا سعى في طلب شيء، وهي في الأصل: قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل، وجُل اسمًا لنزوع الشيء إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل أو لا». (الراغب الأصفهاني، ١٤٣٠ هـ، ص ٣٧٢)

٣- الإرادة هي المشيئة، يقول ابن منظور: «الإرادة من مادة (رود)، أراد الشيء: شاءه، قال ثعلب: الإرادة تكون محبة وغير محبة». (ابن منظور، ١٤٤٥ هـ، ص ١٧٧٢، مادة رود) وعليه فالإرادة هي السعي في طلب شيء أو المشيئة.

ب - تعريف الإرادة اصطلاحاً:

يرى العلامة الحلي أن الإرادة هو ما يخصص الفعل المقدور بالوقوع، ومن الكراهة ما يخصص الترك المقدور به، وربما يطلق الإرادة على ما يخصص أحد الطرفين المقدورين بالوقوع، سواء كان فعلاً وتركاً، وهذا هو المشهور^٤.

ويقول الشيخ ميشم البحراني في كتابه قواعد المرام: «إن الإنسان إذا علم أو ظن أو توهم مصلحة له في بعض الأفعال، فإنه قد يجد في نفسه شوقاً ينبعث له إلى تحصيله لما يتخيل أو يعقل فيه من الملائمة له، وكذلك إن علم أو ظن فيه مفسدة، فإنه قد يجد من نفسه انصرافاً، وانقباضاً عنه بحسب ما يعقل فيه من المنافاة، فذلك العلم أو الظن بالمصلحة، هو مرادنا بالداعي، والمفسدة هو مرادنا بالصراف، وذلك الشوق والميل الحاصل عنه هو المسمى بالإرادة»^٥.

ويرى صدر المتألهين أن الإرادة تطلق على معنيين: أحدهما وهو ضده الكراهة، وهي التي تحصل فينا عقيب تصور الشيء الملائم، وعقيب التردد، حتى يرجع عندنا الأمر الداعي إلى الفعل أو الترك، فيصدر أحدهما منا، وهي من الصفات النفسية فينا.

التعريف المختار: الإرادة هي كيفية نفسانية كسائر الكيفيات النفسانية التي يجدها الإنسان في ذاته بدون توسط شيء، مثلها مثل الألم واللذة، وغيرها من الأمور الوجدانية.

ولكن هنا نعرض أهم الآراء التي تناولت مفهوم الإرادة:

١ - الإرادة هي: الاعتقاد بالنفع، وهذا ما ذهب إليه المعتزلة.

ويعترض عليه: لأن مجرد الاعتقاد بالنفع لا يكون مبدأ للتأثير والفعل.

٢ - الإرادة: هي شوق يحصل للإنسان بعد الاعتقاد بالنفع.

ويعترض عليه: لأن قد تتحقق الإرادة دون ثمة شوق، مثل تناول الأدوية لأجل العلاج، أو يتحقق الشوق دون إرادة للفعل، كما في المحرمات والمشتهيات المحظورة على المسلم التقي، ولذلك صارت النسبة بين الإرادة والشوق عمومًا وخصوصًا من وجه.

٣ - الإرادة: هي كيفية نفسانية متخللة بين العلم الجازم والفعل، ويُعبر عنها بالقصد والعزم تارة، وبالإجماع والتصميم تارة أخرى.

وبناءً على ما سبق يمكن أن نقول: الإرادة هي القصد والميل القاطع نحو الفعل. (السبحاني، ١٤٣٠ هـ، ج ١: ١٦٦-١٦٥)

٢ - تعريف الإرادة الإلهية في أقوال المتكلمين:

يقول العلامة الحلي: «اتفق المسلمون على أنه تعالى مريد، لكنهم اختلفوا في معناه، فأبو الحسين جعله نفس الداعي على معنى أنه علمه تعالى بما في الفعل من المصلحة الداعية إلى الإيجاد، وهو المخصص والإرادة، وقال النجار أنه سلبى وهو كونه تعالى غير مغلوب ولا مستكره، وعن الكعبي أنه راجع إلى أنه تعالى عالم بأفعال نفسه وأمر بأفعال غيره، وذهبت الأشعرية والحنابلة والجباثيان إلى إنه صفة زائدة على العلم». (الحلي، ١٤٠٨ هـ: ص ٢٦٦)

وهنا نعرض تعريف الإرادة الإلهية، من خلال آراء بعض المتكلمين القدامى:

أولاً: أقوال المتكلمين حول تعريف الإرادة الإلهية:

أ - الإرادة عند الشيخ الصدوق (ت: ٣٨٠ هـ) في كتابه الاعتقادات هي المشيئة:

قال الشيخ أبو جعفر: اعتقادنا في ذلك قول الصادق عليه السلام: «شاء الله وأراد، ولم يُحب ولم يرض ألا يكون شيء إلا بعلمه، وأراد مثل ذلك». (الصدوق، ١٤٣١ هـ: ص ٦٧)

ب - الإرادة عند الشيخ المفيد (ت: ٤١٣ هـ) في كتابه أوائل المقالات هي نفس أفعاله:

يقول الشيخ المفيد: «وأقول إن إرادة الله تعالى لأفعاله هي نفس أفعاله، وإرادته لأفعال خلقه أمره بالأفعال، وبهذا جاءت الآثار عن أئمة الهدى من آل محمد عليهم السلام». (العكبري (المفيد)، ١٤٣١هـ، ص ٥٣)

ج- الإرادة عند الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠هـ) في كتابه الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد وكتابه الرسائل العشر هي تلازم الأمر والنهي الإلهي، ومرجح للفعل:

يقول الشيخ الطوسي في كتابه الاقتصاد: «ويجب أن يكون تعالى مُريدًا وكارهاً، لأنه ثبت أنه أمر وناه ومخير، والأمر لا يقع إلا ممن هو مريد للمأمور به، والنهي لا يقع إلا مع كراهية المنهي عنه، ولا يقع الخبر خبراً إلا بإرادة كونه مخيراً». (الطوسي، ١٤٠٦هـ: ٥٨)

ويقول الشيخ الطوسي في كتابه الرسائل العشر: «الله تعالى مُريد، بمعنى أنه يرجح الفعل إذا علم المصلحة، بدليل أنه خصص بعض الأشياء بوقت دون وقت وشكل دون شكل». (الطوسي، د. ت: ٩٥)

د- الإرادة عند العلامة الحلي (ت: ٦٧٢هـ) في كتابه كشف المراد هي المخصصة للفعل دون القدرة:

يقول العلامة الحلي: «والدليل على ثبوت الصفة مطلقاً، إن الله تعالى أوجد بعض الممكنات دون بعض مع تساوي نسبتها إلى القدرة، فلا بد من مخصص غير القدرة التي شأنها الإيجاد مع تساوي نسبتها إلى الجمع، وغير العلم التابع للمعلوم وذلك المخصص هو الإرادة، وأيضاً بعض الممكنات مخصص بالإيجاد في وقت دون ما قبله وبعده مع التساوي، فلا بد من مرجح غير القدرة والعلم». (الحلي، ١٤٠٨هـ، ص ٢٦٦)

هـ- الإرادة عند الشيخ ميثم البحراني (ت: ٦٩٩هـ) في كتابه قواعد المرام في علم الكلام هي علمه بالمصلحة الداعية للإيجاد:

يقول الشيخ البحراني: «بأنه علمه باشتغال الفعل على المصلحة الداعية إلى إيجاده، وهو أخص من العلم المطلق». (البحراني، ١٣٩٨هـ: ص ٨٨)

و- الإرادة عند الشيخ السيوري الحلي (ت: ٨٢٦هـ) في كتابه اللوامع الإلهية هي صفة ذاتية:

يقول الشيخ السيوري: «وأما حقيقة الإرادة التي هي عين العلم وعين الذات فهي من صفاته ذاته الأقدس». (الفاضل المقداد، ١٣٨٠ ش، ص ٤٧١)

ونجد من خلال أقوال المتكلمين أنهم اتفقوا على أن صفة الإرادة هي صفة ثبوتية لله تعالى، واختلفوا في هل هي صفة ذاتية أو صفة فعلية، وهل هي تعني صفة العلم بنحو خاص أم لا؟

ثانياً: التعريف المختار في الإرادة الإلهية:

لا شك في عدم إمكانية مقايضة مفهوم إرادة الإنسان بالإرادة الإلهية، لأن الإنسان يتصور الفعل في البداية، ثم يعتقد بفوائده، ثم يشاق ويرغب إلى القيام بذلك الفعل، فعندما يصل شوقه هذا إلى مراحل النهائية يصدر أوامره إلى العضلات، فيتحرك الإنسان لإنجاز هذا العمل.

لكننا نعلم أن كل هذه المفاهيم (التصور والاعتقاد، والشوق وحركة العضلات)، لا معنى لها بخصوص الله سبحانه، لأنها جميعها حادثة.

كما أنه يجب على كل إلهي في إجراء صفاته سبحانه تجريدها من شوائب النقص وسمات المكان، وحملها بالمعنى الذي يليق بساحته سبحانه وتعالى، مع المحافظة على حقيقتها بعد التجريد. (السبحاني، ١٤٣٠هـ، ج ١: ص ١٧٤)

من أجل هذا نعرف صفة الإرادة الإلهية على نحو مفهوم يتناسب مع الوجود البسيط المجرد، فنقول إلى أن إرادته تعالى على نوعين:

١ - الإرادة الذاتية. ٢ - الإرادة الفعلية.

١: إرادته الذاتية: وهي: علمه بالنظام الأصلح لعالم التكوين، وعلمه بخير وصلاح العباد في الأحكام والقوانين الشرعية.

فهو يعلم أي نظام أفضل وأصلح لعالم الوجود، ويعلم أفضل الأوقات المناسبة لإيجاد الموجودات وحدوث الظواهر في الأزمنة المختلفة.

وكذلك يعلم مصلحة عباده الكامنة في هذه القوانين والأحكام، وأن روح هذه القوانين والأحكام هي علمه بالمصالح والمفاسد. (مكارم الشيرازي، ١٤٢٦ هـ. ق، ج ٤، ص ١٤١-١٤٢)

يقول صدر المتألهين في كتابه الحكمة المتعالية: «وأما إرادة الله فعند الحكماء عبارة عن علمه بنظام العالم على الوجه الأتم الأكمل، فإن هذا العلم من حيث إنه كافٍ في وجود النظام الأتم ومرجح لطرف وجودها على عدمها إرادة». (الشيرازي، ١٤١٠هـ: ج ٤: ص ١١٤)

ويرى صدر المتألهين أن إرادته هي نفس صدور الأفعال الحسنة من جهة علمه بوجه الخير وكرهه عدم صدور الفعل القبيح عنه لعلمه بقبحه. (الشيرازي، ١٣٦٦ ش، ج ٣، ص ٢٢٢)

ولكن يعترض العلامة الطباطبائي على هذا التعريف في كتابه نهاية الحكمة بقوله: «لا دليل على صدق مفهوم الإرادة على علم الواجب تعالى بالنظام الأصلح، وأن القول بأن علم الواجب تعالى بالنظام الأحسن أشبه بالتسمية». (الطباطبائي، ١٤٢٨هـ: ج ٢: ص ٢٦٢)

٢: إرادته الفعلية: وهي عين الإيجاد، إرادته في خلق السماوات والأرض هي عين حدوثها، وإرادته في فرض الصلاة هي عين وجوبها، وفي تحريم الكذب هي عين حرمة. (مكارم الشيرازي، ١٤٢٦ هـ. ق، ج ٤، ص ١٤٢) فالعلامة الطباطبائي يرى أن الإرادة المنسوبة إليه تعالى منتزعة من مقام الفعل، إما الفعل الذي يوجد في الخارج فهو إرادة ثم إيجاب ثم وجوب ثم إيجاد ثم وجود، وإما من حضور العلة التامة للفعل، كما يقال عند مشاهدة جمع الفاعل أسباب الفعل، ليفعل (إنه يريد كذا فعلاً). (الطباطبائي، ١٤٢٨ هـ: ج ٢: ص ٢٦٤)

ويقول العلامة الطباطبائي: «وهذه الصفات الفعلية صادقة عليه صدقاً حقيقياً، لكن لا من حيث خصوصيات حدوثها، وتأخرها عن الذات المتعالية حتى يلزم التغير فيه تعالى وتقدس وتركب ذاته من حيثيات متغايرة كثيرة، بل من حيث إن لها أصلاً في الذات ينبعث عنه كل كمال وخير، فهو تعالى يقوم به كل كمال ممكن في موطنه الخاص به، فهو تعالى بحيث إذا أمكن شيء كان مراداً له، وإذا أراد شيئاً أوجده، وإذا أوجده ربه، وإذا ربه أكمله، فالواجب تعالى وجوبه وقدمه، وللأشياء إمكانها وحدوثها». (الطباطبائي، ١٤٢٨ هـ: ج ٢: ص ٢٤٤) ويرى المصباح اليزدي في كتابه دروس في العقيدة الإسلامية أن الإرادة بمعنى التصميم على القيام بعمل، فهي بلا شك من الصفات الفعلية، حيث تتحدد وتتقيد بقيود وتحديات زمانية، بلحظ تعلقها بالأمر الحادثة، كما يلاحظ ذلك في الاستعمالات القرآنية، أمثال: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) (يس: ٨٢).

كما يرى المصباح اليزدي أنه يلزم التأكيد على أن اتصاف الله تعالى بالصفات الفعلية لا يعني حصول تغير في الذات الإلهية أو حدوث عرض فيه، بل يعني إضافة ونسبة بين الذات الإلهية ومخلوقاتهما، من زاوية خاصة، وفي ظل شروط معينة، وينتزع من خلال ذلك مفهوم إضافي معين هو أحد الصفات الفعلية. (المصباح اليزدي، ٢٠٠٨ م، ص ١٠١)

ويمكن أن يقال إن الإرادة تنقسم إلى إرادة في مقام الفعل وإرادة في مقام الذات، مثل صفة العلم، فالعلم ينقسم إلى العلم في مقام الفعل والعلم في مقام الذات. (السبحاني، ١٤٢٤ هـ، ص ٤٧)

يقول السيد كمال الحيدري في تعريف العلم:

«هناك علم ذاتي بالأشياء قبل الإيجاد، وعلم فعلي بالأشياء مع الإيجاد وبعده، العلم الذاتي هو عين الذات، بينما العلم الفعلي هو عين الفعل، وغيره سبحانه». (الحيدري، ١٤٣٢ هـ، ص ١٣١)

وعليه فالإرادة صفة ذاتية لها مقامين: إرادة في مقام الذات، وإرادة في مقام الفعل، مثل صفة العلم، فهي صفة ذاتية ذات إضافة.

ولذلك يقول الفيض الكاشاني في كتابه علم اليقين في أصول الدين:

« و أما إرادته سبحانه : فهي من حيث نسبتها إليه سبحانه عين ذاته عز وجل ، و أما من حيث إضافتها إلى المراد فإنها محدثة ، إلا أنها ليست كإرادتنا مقدمة على الفعل ، بل هي هناك نفس الفعل و الإيجاد . قال مولانا الكاظم : (الإرادة من المخلوق الضمير و ما يبدو له بعد ذلك من الفعل ، و أما من الله عز وجل إرادته إحداثه لا غير ذلك ، لأنه لا يروي و لا يهم و لا يتفكر ، و هذه الصفات منفية عنه ، وهي من صفات الخلق ، فإرادة الله تعالى هي الفعل ، لا غير ، يقول له كن فيكون ، بلا لفظ و لا نطق بلسان و لا همة و لا تفكر ، و لا كيف لذلك » . (الفيض الكاشاني، ١٤١٨هـ، ج ١: ص ١٠١)

٣- أقسام الإرادة الإلهية:

تنقسم الإرادة الإلهية إلى قسمين، هما الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية، وهذا يظهر من خلال تتبع الآيات القرآنية، والروايات الشريفة:

أ- الإرادة التكوينية:

ومن تعاريف الإرادة التكوينية:

١ - الإرادة التكوينية: هي ألا يتوسط بينها وبين تحقق الفعل في الخارج إرادة فاعل آخر. (الحيدري، ١٤٣٢هـ، ص ٢١٦)

٢ - الإرادة التكوينية: عبارة عن حقيقة الإرادة والحمل الشائع عليها وتتعلق بتكوين الشيء وتحققه وإيجاده مباشرة من ذات الباري تعالى، والإرادة التكوينية في الله تعالى لا تتخلف عن المراد، وكل ما أراده يتحقق في الخارج من غير حالة منتظرة، بخلاف الإرادة بالإنسان فإنها تتخلف فإنه يمكن أن يريد شيئاً ولا يقع بالخارج لعله، فالتفكيك يقع بين إرادة الإنسان ومراده.

٣ - الإرادة التكوينية: هي الإرادة التي يفيض منها وجود جميع الكائنات والموجودات، أي عين إيجادها جميعاً. (مكارم الشيرازي، ١٤٢٦ هـ. ق، ج ٤، ص ١٤٢)

ب - الإرادة التشريعية:

من تعاريف الإرادة التشريعية:

١ - الإرادة التشريعية: هي الإرادة التي يتوسط بينها وبين تحقق الفعل في الخارج إرادة فاعل آخر. (الحيدري، ١٤٣٢هـ، ص ٢١٧)

٢ - الإرادة التشريعية: هي تتعلق بفعل الغير وصدور العمل منه باختياره، والإرادة التشريعية تصدر من الباري تعالى، وتتعلق بأفعال المكلفين، وليست في حق الله تعالى إلا الأوامر والنواهي، بمعنى التشريع باختيار المكلفين. (الفاضل المقداد، ١٣٨٠ ش، ص ٤٧٢)

٣- الإرادة التشريعية: هي الإرادة التي يفيض منها جميع الأوامر والنواهي الإلهية، وجميع الأحكام والقوانين الشرعية، أي عين هذه الأحكام والقوانين. (مكارم الشيرازي، ١٤٢٦ هـ. ق، ج ٤، ص ١٤٢)

ومن هنا نجد أن الإرادة الإلهية لا تتخلف ولا تنفك عنه سبحانه وتعالى، وإرادته هي عين فعله بالخارج، بخلاف الإرادة عند الإنسان فإنها يمكن أن تتخلف ولا تقع في الخارج. وأن الفرق بين الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية هي أن الإرادة التكوينية لا يتوسط فيها بين الفاعل وتحقق الفعل بالخارج إرادة فاعل آخر، وإلا تكون إرادة تشريعية، عند توسط خارجي بين الفاعل وفعله.

٤ - هل الإرادة هي المشيئة:

يعتقد الكثير من أصحاب اللغة والمتكلمين أن المشيئة تعني الإرادة، واعتقد البعض منهم أن المشيئة تعني إيجاد الشيء والوصول إليه، ولو أنها حلت محل الإرادة في الاستعمالات المتعارفة، وعلى هذا تكون المشيئة بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى بمعنى الإيجاد، وبالنسبة إلى الناس بمعنى الوصول إلى شيء معين. ولكن ورد في بعض الكتب أن المشيئة غير الإرادة، فالمشيئة هي الميل الذي يحصل للإنسان بعد التصور والتصديق، ثم يحصل بعدها العزم والتصميم، ثم تتحقق الإرادة، وعليه فإن المشيئة تُطلق على المراحل الأولى، والإرادة على المراحل الأخيرة وتتصل بالفعل. (مكارم الشيرازي، ١٤٢٦ هـ. ق، ج ٤، ص ١٣٢-١٣٣)

ومن خلال متابعة الآيات القرآنية، يتضح أن كلمة (إرادة) مستعملة في الإرادة التشريعية والتكوينية، وفي حين كلمة (المشيئة) مستعملة في مجال الخلق والتكوين غالباً، ويندر وجودها في مجال التشريع، وهذا يدل على كون المشيئة أقرب إلى التكوين، كما في قوله تعالى: (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) (الكهف: ٢٣)، فهذه الآية لا تشير إلى الجبر، بل تشير إلى غلبة المشيئة الإلهية، والتي بدونها لا نستطيع الوصول إلى أهدافنا، وأن الحرية التي منحها الله للإنسان ليست إلا لاختباره وتربيته والعروج به إلى درجات الكمال، فحرية الإنسان وإرادته لا تعني سلب الإرادة الإلهية. (مكارم الشيرازي، ١٤٢٦ هـ. ق، ج ٤، ص ١٣٨)

المبحث الثاني: معنى الإرادة الإلهية في الآيات والروايات التي تناولت الإرادة الإلهية:

تحدثت آيات قرآنية كثيرة عن إرادة الله سبحانه وتعالى، سواء إرادته في عالم الخلق والوجود، أو إرادته في تشريع القوانين والأحكام، وتكاليف العباد ومصيرهم. (مكارم الشيرازي، ١٤٢٦ هـ. ق، ج ٤، ص ١٣٢)

أ- من الآيات التي تناولت الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية:

من الآيات التي تناولت الإرادة التكوينية:

١ - قوله تعالى: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) (النحل: ٤٠)

فالآية تخبرنا بعدم انفصال إرادة الله تعالى عن وجود الأشياء، فبمجرد قوله سبحانه للشيء الذي يريده كن، فإنه سيتحقق، وهذا لا يعني وجود الحوادث والموجودات في لحظة واحدة، بل يعني وجودها وحدوثها وفق الإرادة الإلهية بدون تقديم أو تأخير. والتعبير بكلمة (كن) إنما جاء بسبب عجز اللفظ عن بيان المعنى، أي أنه تعبير كنائي، وإلا فلا توجد فاصلة بين إرادة الله تعالى وتحقق الشيء المراد.

٢- قوله تعالى: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين) (القصص: ٥)

هذه الآية تخبرنا عن أثر الإرادة الإلهية في مصير الأقاليم والأمم، وأنها تتبرق قلوب ونفوس المستضعفين من بين الأمم، وأن التعبير (نريد) تدل على استمرارية هذه السنة الإلهية المتمثلة بتسلط المستضعفين وسيطرتهم على زمام الأمور في الأرض واندحار الطواغيت المستكبرين. (مكارم الشيرازي، ١٤٢٦ هـ. ق، ج ٤، ص ١٣٣-١٣٥)

٣- قوله تعالى: (إن الله يدخل الذين آمنوا وعلموا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد) (الحج: ١٤).

٤- قوله تعالى: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) (يس: ٨٢)

٥- آية التطهير في قوله تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) (الأحزاب: ٣٣)

٦- قوله تعالى: (فعال لما يريد) (البروج: ١٦)

فالله تعالى يبين في هذه الآيات الشريفة كيفية تحقق إرادته التكوينية، وإنها لا تتخلف عن مراده، ويلبس المطلوب لباس الوجود بمجرد الإرادة من غير حالة مضطرة. وهي بخلاف الإرادة التكوينية للإنسان فإنها تتخلف عن مراده، وإن إرادته مقهورة تحت الإرادة الأزلية، كما في قوله تعالى: (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها، ولهم عذاب مقيم) (المائدة: ٣٧). (الفاضل المقداد، ١٣٨٠ ش، ص ٤٧٣)

ولا شك أن للإيمان بالإرادة التكوينية أثراً تربوياً عميقاً، حيث يلهم المؤمنين والصالحين القوة والأمل والافتقار، ويزيدهم رسوخاً في مواجهة الظالمين.

أما ما جاء بالقرآن الكريم من استعمال الإرادة التشريعية مثل:

١- قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق) إلى أن قال: (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) (المائدة: ٦).

ولا شك أن الإرادة في قوله تعالى (يريد ليطهركم) تشريعية، فإن الله تعالى جعل الأحكام وتشريعها من الوضوء والغسل والتيمم، والغرض منها طهارة الناس من الأحداث، وبديهي أن بعض الناس يعمل بهذه الأحكام،

وبعضهم يتركها، فلو كانت الإرادة تكوينية، فلا يمكن أن تتخلف عن المراد، كما أن الإرادة التشريعية تتعلق بفعل الغير بإرادته واختياره، وفي هذه الآية تعلقت إرادة الله تعالى بأفعال العباد، وأنهم يعملون بهذه الأحكام باختيارهم، فظهر أن المراد من الإرادة في الآية السابقة هي الإرادة التشريعية.

٢- قوله تعالى: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (البقرة: ١٨٥).

استعمل في الآية الشريفة (يريد)، وهي إرادة تشريعية، لأن المتعلق هو تشريع حكم وجعل قانون. (الفاضل المقداد، ١٣٨٠ ش، ص ٤٧٣)

ب- من الروايات التي تناولت تعريف الإرادة الإلهية:

الحديث الأول:

عن ابن الوليد عن ابن أبان عن الحسين بن سعيد عن النظر عن ابن حميد عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قلت له: لم يزل الله مريداً؟»، فقال: إن المريد لا يكون إلا المراد معه، بل لم يزل عالماً قادراً ثم أراد». (المجلسي، ١٤٢٩ هـ، كتاب التوحيد، ص ٢٥٦)

وبطريق آخر: محمد بن يحيى العطار، عن أحمد بن محمد بن محمد بن عيسى الأشعري، عن الحسين بن سعيد الأهوازي، عن النظر بن سويد، عن عاصم بن حميد، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت: لم يزل الله مريداً؟ قال: إن المريد لا يكون إلا المراد معه، لم يزل عالماً قادراً ثم أراد. (الحلي، ١٣٧٠ هـ، ص ١٤٠)

في بيان وشرح الحديث:

ولا شك أن الحديث ناظر إلى الإرادة الفعلية لله تعالى، فعندما ينفي (الإرادة الأزلية)، فالمقصود نفي مقولة أن الإرادة زائدة على الذات وأنها أزلية، فيكون مفهومها تعدد القدماء. أما الإرادة الذاتية التي هي عين العلم، والعلم بدوره هو عين ذاته المقدسة، فهو عين التوحيد لا الشرك. (مكارم الشيرازي، ١٤٢٦ هـ. ق، ج ٤، ص ١٤٣)

يرى صدر المتأهلين أن هذا الحديث يدل بظاهره على أن إرادته تعالى حادثة، كما رآه قوم ذهبوا إلى أن مع حدوثها فهي من صفات الذات، وإن ذاته محل للإرادات الحادثة، والحق كون ذاته يصدر عنه الأشياء لأجل علمه بنظام الخير فيها التابع لعلمه بذاته، فالله سبحانه فاعل للأشياء كلها بإرادة ترجع إلى علمه بذاته، المستتبع لعلمه بغيره المقتضي لوجوده غيره في الخارج، لا لغرض زائد وجلب منفعة، فالأشياء الصادرة عنه كلها مرادة لأجل ذاته، لأنها من توابع الذات وعلمه بذاته. (الشيرازي، ١٣٦٦ ش، ج ٣، ص ٢٢٣)

وكذلك يرى الفيض الكاشاني في بيان هذا الحديث: أن المراد بالإرادة هنا الإحداث. (الفيض الكاشاني، ١٤٣٠ هـ، ج ١، ص ٤٥٦)

الحديث الثاني:

عن أحمد بن إدريس عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى، قال: «قلت لأبي الحسن عليه السلام أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق، قال: «الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل، وأما من الله تعالى فإن إرادته أحداثه لا غير، لأنه لا يروي ولا يهيم ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه تعالى، وهي صفات الخلق، فإن إرادته الفعل لا غير ذلك، يقول له: كن فيكون، بلا لفظ ولا نطق بلسان ز لا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك كما لا كيف له. أو (كما أنه بلا كيف)». (الحلي، ١٣٧٠ هـ، ص ١٤٠)

شرح وبيان الحديث:

معنى (يبدو لهم): أي يظهر، والروية هي التفكير، والهمة هي القصد، فالإرادة فينا هي كيفية نفسانية تحدث عقيب تصور الشيء الملائم، والتصديق بثبوته ونفعه تصديقاً علمياً أو ظنياً أو تخيلياً أو جهلاً، وقد يحصل التصديق بعد التردد، فإذا حصل الرجحان وقع العزم الذي هو الإرادة.

وأما إرادة الله الحادثة فليست صفة له، لاستحالة حدوث صفة أو كيفية في ذاته، وليست هي إلا إضافة أحداثه لأمر كائن لا غير، لتعالیه عن الروية والهمة والتفكر، لكونها من صفات المخلوقين، فإن إرادته سبحانه المتجددة هي نفس أفعاله المتجددة، فإن إرادته لكل حادث يرجع إلى إيجاده، وقوله (يقول له كن فيكون بلا لفظ...) دال على أن كلامه عبارة عن إيجاده، وهو الوجود المعبر عنه بالافتضاء الذاتي والتوجه الإلهي لوجود الشيء. (الشيرازي، ١٣٦٦ ش، ج ٣، ص ٢٢٦)

الحديث الثالث:

عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال:

قال أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام: «قال الله: ابن آدم، بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبقوتي أدبت فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي، جعلتك سمياً بصيراً قوياً، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك وذاك أني أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني، وذاك أنني لا أسأل عما أفعل وهم يُسألون». (الكليني، ١٤٣٤ هـ، ج ١، ص ٣٧١)

شرح وبيان الحديث:

هذا الحديث يتناول الإرادة التكوينية لله تعالى المتعلقة باختيار وحرية الإنسان، والتي جعلت الإنسان مخلوقاً مريداً حاكماً على مقدراته، غاية الأمر أن الإنسان يُسيء الاستفادة منها أحياناً، فيستعمل نعم الله عليه في معصيته سبحانه، وهذا من عمل الإنسان نفسه، أما حسن الاستفادة من نعم الله تعالى فهو توفيق من الله ومعوته لعبده. (مكارم الشيرازي، ١٤٢٦ هـ، ج ٤، ص ١٤٤)

الحديث الرابع:

عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن السري بن خالد، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً عجل عقوبته في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد سوءاً أمسك عليه ذنوبه حتى يوافي بها يوم القيامة». (الصدوق، ١٤٠٣هـ: ج ١، ص ٢٠)

شرح وبيان الحديث:

وهذا الحديث يبين إرادة الله المطلقة، فهو يفعل ما يشاء مع عباده، فإن أراد الله لعبده الخير سارع له بالعقوبة في الحياة الدنيا، ليخرج منها نقيّاً طاهراً من الذنوب والمعاصي، وأما إن أراد به السوء أمسك عليه العقوبة في الحياة الدنيا، حتى يؤاخذ عليها يوم القيامة، ولذلك فالعبد المؤمن عليه بالصبر على البلاء لأنها كفارة للذنوب، فعذاب الدنيا أهون بكثير من عذاب الآخرة، وعقوبتها لا تقارن بعقوبة الآخرة.

النتيجة:

١ - الإرادة الإلهية من صفات الله تعالى الثبوتية، ولذلك يُطلق على الله بالمُريد. والإرادة صفة هي كمال لكونها رمز الاختيار وسمة عدم المقهورية.

٢ - اختلف العلماء المسلمون في حقيقة الإرادة الإلهية، فذهب البعض إلى القول بأنها صفة ذاتية وهو المشهور بين متكلمي الشيعة، والبعض ذهب إلى أنها صفة فعلية كالشيخ المفيد والعلامة الطباطبائي.

٣ - الرأي المختار هو أن الإرادة هي صفة ذات مقامين: إرادة في مقام الذات وإرادة في مقام الفعل. وهذا التعريف هو آخر ما وصل إليه علماء اليوم في تعريف الإرادة الإلهية، وتبناه الشيخ السبحاني في كتابه الإرادة التكوينية والتشريعية، وكذلك تبناه الشيخ مكارم الشيرازي في كتابه نفحات القرآن.

٤ - تنقسم الإرادة الإلهية إلى إرادة تكوينية وهي متعلقة بالخلق والايجاد والتي تتحقق بدون توسط شيء، ولا تتخلف، وبدون توقف على شرط أو قيد، وإلى إرادة تشريعية وهي متعلقة بالأحكام والقوانين والأوامر والنواهي.

٥ - تناولت الآيات القرآنية الإرادة بقسميها التكوينية والتشريعية.

٦ - إن السابر فيما صدر عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في الإرادة الإلهية، يقف على أنهم نظروا إليها من عدة زوايا، منها:

أ- أن الإرادة الإلهية غير العلم والقدرة.

ب - ما من ظاهرة كونية إلا وقد تعلق بها الإرادة الإلهية.

ج- إرادته سبحانه من صفات الفعل لا من صفات الذات^١.

٧- إن الإيمان بالإرادة الإلهية التكوينية والتشريعية له أثر تربويًا عميقًا، حيث يلهم المؤمنين والصالحين القوة والأمل والاقتدار، ويزيدهم رسوخًا في مواجهة الظالمين.

٨- ذهب الحكيم السبزواري إلى أن الإرادة الإلهية على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: إرادة حقيقية، هي عين الذات، وفُسرَت بالمحبة الذاتية المتعلقة بالذات، ثم تسربت إلى حب الآثار.

المرتبة الثانية: إرادة حقة ظلية، وهي مقام التجلي والظهور.

المرتبة الثالثة: إرادة هي من مقولة الإضافة، تلحظ في متعلقها، نظير العالم الحادث بلحاظ حدوثه معلومة. (معرفة، ١٤٢٩هـ، ج ٣، ص ٥٧١)

وهذا التعريف يحتاج إلى تأمل من العلماء، ولعله الأقرب إلى وصف الإرادة الإلهية.

المصادر:

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب (١٤٤٥ هـ)، تحقيق عبد الله الكبير، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الجديدة.
- ٣ - البحراني، ميثم بن علي، قواعد المرام في علم الكلام (١٣٩٨ هـ)، مطبعة مهر، قم المقدسة، الطبعة الأولى.
- ٤ - الحلبي، حسن بن سليمان، مختصر بصائر الدرجات (١٣٧٠ هـ)، منشورات المطبعة الحيدري، النجف، الطبعة الأولى.
- ٥ - الحلبي، الحسن بن يوسف، شرح الباب الحادي عشر (١٣٤٨ هـ ش)، تحقيق دكتور مهدي محقق، نشر مؤسسة جاب.
- ٦ - الحلبي، الحسن بن يوسف، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد (١٤٠٨ هـ)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.
- ٧ - المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار (١٤٢٩ هـ)، تحقيق مجموعة من العلماء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
- ٨ - الحيدري، السيد كمال، دروس في التوحيد (١٤٣٢ هـ)، بقلم الشيخ علي حمود العبادي، لبنان، نشر دار المرتضى.
- ٩ - الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن (١٤٣٠ هـ)، تحقيق صفوان عدنان، نشر دار العلم الشامية، الطبعة الرابعة.
- ١٠ - السبحاني، جعفر، الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل (١٤٣٠ هـ)، بقلم: حسين العاملي، مؤسسة الصادق عليه السلام، قم، إيران، الطبعة السابعة.
- ١٢ - الشيرازي، محمد بن إبراهيم، الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة (١٤١٠ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة.
- ١٣ - الشيرازي، محمد بن إبراهيم، شرح أصول الكافي (١٣٦٦ ش)، تصحيح محمد خواجوي، مؤسسة مطالعات للنشر.
- ١٤ - الشيرازي، ناصر مكارم، نفحات القرآن (١٤٢٦ هـ ق). نشر ابي صالح للنشر، تحقيق مجموعة من العلماء، إيران - قم.

- ١٥ - الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي (١٤٣٤ هـ ق)، تحقيق: قسم إحياء التراث - مركز بحوث دار الحديث، مطبعة دار الحديث، إيران - قم المقدسة، الطبعة الثالثة.
- ١٦ - الفيض الكاشاني، محمد محسن، الوافي (١٤٣٠ هـ)، إشراف مؤسسة السيد كمال الدين فقيه، نشر عطر العترة، قم المقدسة، الطبعة الأولى.
- ١٧ - الفيض الكاشاني، محمد محسن، علم اليقين في أصول الدين (١٤١٨ هـ)، تحقيق محسن بيدارفر، منشورات بيدار، قم المقدسة، الطبعة الأولى.
- ١٨ - العكبري (المفيد)، محمد بن النعمان، أوائل المقالات (١٤٣١ هـ)، تحقيق: إبراهيم الأنصاري، نشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، قم المقدسة، الطبعة الأولى.
- ١٩ - الصدوق، محمد بن علي ابن بابويه، كتاب الاعتقادات (١٤٣٢ هـ)، تحقيق مؤسسة الامام الهادي عليه السلام، قم المقدسة، الطبعة الثانية.
- ٢٠ - الصدوق، محمد بن علي ابن بابويه، الخصال (١٤٠٣ هـ)، صححه علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة.
- ٢١ - الطباطبائي، محمد حسين، نهاية الحكمة (١٤٢٨ هـ)، صححه عباس السبزواري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، الطبعة الرابعة.
- ٢٢ - الطوسي، محمد بن الحسن، الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقادات (١٤٠٦ هـ)، نشر دار الأضواء، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية.
- ٢٣ - المصباح، محمد تقي، دروس في العقيدة الإسلامية (٢٠٠٨ م)، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لم تذكر سنة الطبعة.
- ٢٤ - الطوسي، محمد بن الحسن، الرسائل العشر (د. ت)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، الطبعة الثانية.
- ٢٥ - جعفر، السبحاني، الإرادة الإلهية التكوينية والتشريعية، سلسلة المسائل العقائدية (١٤٢٤ هـ)، مؤسسة الإمام الصادق (ع)، قم، الطبعة الأولى.
- ٢٦ - محمد هادي، معرفة، التفسير الأثري الجامع (١٤٢٩ هـ)، منشورات ذوي القربى، قم المقدسة، الطبعة الأولى
- ٢٧ - ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغة (١٣٩٩ هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر

الفاضل المقداد، مقداد بن عبد الله، اللوامع الإلهية في المباحث الكلامية (١٣٨٠ ش)، تحقيق وتعليق: محمد علي القاضي، قم، بوستان كتاب.